المحاضرة الأولى: مفهوم نظرية النظم

1- تعريف النظم : جاء في معجم العين للخيل : النظام كل خيط ينظمُ به اللؤلؤ أو غيره فهو نظام ، وجاء في مقاييس اللغة لابن فارس ونظمت الخرز نظما ، ونظمت الشعر وغيره والنظام الخيط يدمع الخرز ، وإلى هذه المعاني ذهب الفيروز أبادي أيضا .

اصلاحا:

قال الجرجاني : النظم هو تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب بعض.

ويقول : واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تبخل بشيء منها

ويعرفه الرازي: النظم هو خلوص الكلام من التعقيد وأصله من الفصيح وهو اللبن الذي أخذت منه الرغوة.

فالنظم إذن هو الضم والجمع.

2- قضية اللفظ والمعنى في البلاغة العربية.

شغلت قضية اللفظ والمعنى اهتمام النّقاد العرب القدامى ، فكان مدار الأمر بشأن النص الشعري أو النثر الأدبي الجميل والبليغ، ما سر الجمال والإبداع فيه هل هو بفعل تناسق ألفاظه وجمالها أم نتيجة سمو معانيه واتساقها، فانتصر بعضها للفظ وانحاز البعض الآخر للمعنى.

والحقيقة أن هذه المسألة لم تكن مقتصرة على النقد العربي القديم، بل نجد لها جذورًا في الآداب اليونانية القديمة، فأفلاطون يتحدث بإسهاب عن المسألة، لكن من جانب فلسفي وبقياس منطقي، فهو يفترض أن الوعي له الأسبقية على المادة، ووفق هذا القياس فالمعاني التي هي نتاج الوعي لها الأسبقية على الألفاظ التي هي مجرد محاكاة لما هو موجود في عالم المُثل من معانٍ وأفكار.

ويُشَبه أفلاطون عمل الأديب بالمرآة، فهو ينقل المعاني والأفكار من عالم المُثل إلى الواقع عبر الألفاظ، لكن هذه الألفاظ كالصورة المنعكسة في المرآة تبقى مزيفة، وأن الأصل والجوهر هو في المعاني الأصلية، وبهذا يكون أفلاطون قد انتصر للمعاني على الأفكار، وعارضه تلميذه أرسطو الذي ذهب للتوفيق بين المعاني والألفاظ، معتبرهما ركيزتين أساسيتين لبلوغ النص الأدبي غايته من حيث الفصاحة والبلاغة.

وبدورهم، كان للنقاد العرب آراء متباينة ومختلفة في المسألة، وفيما يلي استعراض لأهم هذه الآراء.

تناول القضية الفراء في كتابه معاني القرآن فقد ذكر أن سبب تأليف كتابه هو الغوص في ألفاظ ومعاني القرآن وقد تضمن هذا الكتاب تفسير مشكل إعراب القرآن ومعانيه ، كما نجد الأمر عند أبي عبيدة في كمتابه معاني القرآن

اللفظ والمعنى عند الجاحظ

يُعد الجاحظ أول من تحدث عن مسألة اللفظ والمعنى في الأدب العربي حينما قال: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ."

ومعنى كلام الجاحظ أن المعاني التي يطرقها الأديب والشاعر هي مشاعة ومتاحة للجميع "مطروحة في الطريق"، لكن ما يكسبها أهمية هو صياغتها بقالب أدبي جميل وانتقاء الألفاظ المناسبة للتعبير عنها.

وقد فهم البعض خطأ من خلال هذه المقولة أن الجاحظ من أنصار الألفاظ وأنه يحط من شأن المعاني، والصحيح أنه من دُعاة المواءمة بين الألفاظ والمعاني لأنه يصرح في مواضع أخرى برأيه، فيشبه الألفاظ بالبدن والمعاني بالروح، فهو يجعل العلاقة بين المعاني والألفاظ كعلاقة الروح بالجسد فيقول: "الأسماء في معنى الأبدان، والمعاني في معنى الأرواح، اللفظ للمعنى بدنٌ، والمعنى للفظ روح." " ولايكون معناه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك

اللفظ والمعنى عند ابن قتيبة

وقد ذهب ابن قتيبة (ت276 هـ) أيضا إلى موافقة الجاحظ في أنّ المعنى واللفظ يكمّل كلّ واحد منهما الآخر في إطار الصياغة الواحدة 1، وإن كان ابن قتيبة قد قسّم الشعر العربي إلى أربعة أقسام وميّز بينها معتمدا على ثنائية اللفظ والمعنى ، وهي:

1 - ضربٌ منه حسُن لفظه وجاد معناه.

2 - ضربٌ منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتَّشته لم تجد هناك فائدةً في المعنى.

3 - ضربٌ منه جاد معناه وقَصُرتْ ألفاظُهُ عنه.

4 - ضربٌ منه تأخَّر معناه وتأخر لفظه

وقد دعّم ابن قتيبة هذه الأقسام بعدد من الأمثلة الشّعرية ،فمن أراد الاطلاعَ على عليها فليرجع إلى كتاب الشّعر والشّعراء ، أو إلى كتاب العمدة لابن رشيق ففيها ما يشفي الغليل

قدامةَ بنِ جعفر (ت337 هـ):

ويأتي قدامةَ بنِ جعفر ،ولا يختلف رأيه عن سابقيه حيث ذهب إلى أن العملَ الأدبي يجب أن يتميَّز بالمساواة بين اللفظ والمعنى ويتمّ ذلك بإئتلافِ عناصرهِ النصيةِ؛ حيث يقول : ((وهو أن يكون اللفظُ مساويًا للمعنى، حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، وهذه هي البلاغة التي وصف بها بعض الكتاب رجلًا، فقال: كانت ألفاظُه قوالبَ لمعانِيهِ؛ أي هي مساويةٌ لها لا يفضُلُ أحدُهُما على الآخر))

---

1 - الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، ص62

وقد احتل اللفظُ والمعنى عند نقَّاد عمودِ الشعر مكانةً رئيسة؛ حيث نجدهما على رأس أبواب عمود الشعر السبعة عند المرزوقي (ت 421 هـ)، الذي كان آخرَ حلقةٍ في تطورِ هذه القواعد، ومعه استوت على سوقِها، حيثُ ذكر:

1 - شرف المعنى وصحته.
2 - جزالة اللفظ واستقامته.
3 - الإصابة في الوصفِ.
4 - المقاربة في التشبِيه.
5 - التحام أجزاءِ النظم والتئامها على تخيرٍ من لذيذِ الوزنِ.
6 -مناسبة المستعار منه للمستعار له.
7 -مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا تكون منافرة بينهما.

وقد ذكر عيارَ كلِّ واحدٍ منهما - أي عيار اللفظ وعيار المعنى - فقال: ((فعيارُ المعنى أن يُعرَضَ على العقل الصحيح، والفهم الثاقب، فإذا انعطف عليه جَنبتا القبولِ والاصطفاء، مُستأنِسًا بِقَرَائنه، خرج وافيًا، وإلا انتقض بمقدار شَوْبِهِ ووحْشَتِهِ))

وقال في اللفظ: ((وعيار اللفظ الطبعُ والرِّوايةُ والاستعمالُ، فما سلِم ممَّا يُهجنهُ عند العرضِ عليها، فهو المختارُ المستقيم..)

أما عبدالقاهر الجرجاني، فقد كان لتأخّره زمنيًّا عن كل المذاهب الأثرُ الإيجابي في اطلاعه على مختلف الآراء النقدية التي صدرت حول هذه القضية؛ حيث ((اجتمعت لديه آراؤهم، وأفاد مِن خبرتِهم، ولكنه تجاوزهم إلى رأي خاص، وكانت له في هذا المجال الأصالة والعمق، وكان صاحب مدرسةٍ في النقد، أدرك فيها ما لم يُدرِك النقادُ...))

ولعل أكبر ما اشتهر به عبد القاهر الجرجاني هو علاقة اللفظ بالمعنى بالإعجاز القرآني ، التي اصطلح عليها فيما بعد بـ (نظرية النظم)، إذ كانت زبدة ما أفرزه حديث اللفظ والمعنى ؛ حيث صاغ فلسفته البلاغية التي جعل محورها نظريته في النظم بأن ربط بين اللفظ والمعنى وبين دلالة الألفاظ ، وجعل النظم وحده هو مظهر البلاغة ومثار القيمة الجمالية في النص الأدبي.

لقد كان لنقّاد المغرب العربي والأندلس بصماتهم في طرح القضايا النّقدية ومناقشتها ،وميّزتهم بيئتهم التي أثّرت في إنتاجهم الشّعري ودراساتهم النّقدية بالجدّية والعمق في معالجة هذه القضايا النقدية ، ومن هؤلاء النّقّاد العلماء نجد : (ابن رشيق القيرواني، وابن البناء المراكشي، وأبي القاسم السجلماسي، وابن خلدون، وحازم القرطاجني...)

<u>حازم القــرطــاجــنـي :</u>

لم يتعصّب حازم لأصحاب اللّفظ ولا لأصحاب المعنى وإنّما أكّد على أهمّية (التناسب) بين أركان العمل الشعري من حيث اللفظ والمعنى . . وذلك بهدف واحد رئيس يتمثّل في إحداث التأثير في المتلقي.وهذا ما عرف بعد ذلك ـــ وفي عصرنا ـــ بنظرية التّلقّي .

ومن أهمّ ما استجدّ في دراسات حـــازم القـــرطـــاجـــــــــــــــــني[2] ، **هو**((تأكيدُه على فكرة التناسب المبدئي، بكون القصيدة تركيبًا متناسبًا من مستويات متنوّعة، ترتد إلى معانٍ وأساليب مصوغةٍ في ألفاظ تتلاحم في نظام جامع لشتات مركب من أغراض))[3] .

والأمر الذي لاريب فيه، هو أن فكرةَ التناسب هذه لا يمكنُ أن تتم إلا من خلال التناسب بين اللفظ والمعنى.

ومن الأسس الهامّة التي يعتمد عليها **<u>(التّناسب)</u>** عند القرطاجني: مسألة التركيب اللُّغوي للصورة المتخيَّلة، ولا يتأتّى ذلك إلا إذا تحقّق **<u>(التناسب)</u>** بين اللفظ والمعنى. لأنَّ أجود الشعرِ ما حقّق المبدعُ فيه أكبر قدر من التّناسب بين معانيه وصوره، ليكون التّاثير في المتلقي أكبر وأشدّ .والعنصر الجديد عند حازم القرطاجنّي هو **<u>التناسب بين اللفظ والمعنى والتّخييل في الصّور الشعرية .</u>**

ابنُ رشيق القيرواني (ت463):

---

[2] ـــــ حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، ص45/44

[3] ـــــ الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي ، اتحاد كتاب العرب، دمشق - 2001، ص222.

يرى بعض الباحثين المحدثين والمعاصرين أنّ كتاب (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) يعدّ تلخيصًا شافيًا لأهم الآراء النقدية السابقة التي تناولت قضية اللفظ والمعنى ؛ حيث يقول : ((اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الرّوح بالجسم ، يضعف بضعفه ويقوى بقوّته ؛ فإذا سلم المعنى واختلّ بعض اللفّظ كان تقصا للشّعر وهجنة ليه كما يرض لبض الأجسام من العرج والشّلل والعور ـــ وما أشبه ذلك ـــ من غير أن تذهب الرّوح ، وكذلك إن ضعف المعنى واختلّ بعضه كان للّفظ من ذلك أوفر حظّ كالّذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح . ولا تجد معنى يختلّ إلاّ من جهة اللّفظ وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح . . .))[4]

المحاضرة الثانية :نظرية النظم قبل الجرجاني

مامن شكّ في أن نظرية النظم قد كتب لها الفتح على يد العلامة عبد القاهر الجرجاني فهو من أسس قواعدها ووضع أسسها ؛ إلا أن المتنعم فيما كتبه من سبق الجرجاني يجد بعض الإشارات عند أرسطو الذي ذكر أقسام الكلمة والفروق بينها والمقاطع والحروف والأصوات التي رآها ضرورية في كتابة " فن الشعر "

كما ذكر الجاحظ في حديثة عن الصحيفة اليهودية أن الهنود قد اعتنوا بنظرية النظم بما جاء فيها من فصول تتصل بأسلوب الخطيب وصفاته ، وهو الأمر نفسه الذي ذكره البيروني في تاريخ الهند ووصفه للمحاولة البلاغية التي كانت تتصل بقضية الإعجاز في كتابهم الديني "

---

4 ـــ ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده؛ تحقيق: عبدالحميد هنداوي ؛ المكتبة العصرية ، بيروت؛ طبعة: 2004، ج1،ص 112.

وفي مباحث الإعجاز التي كانت سببا لنشأة الدرس اللغوي العربي قديما عرف مصطلح النظم وألف فيه قوم كثر كالجاحظ والواسطي والحسن بن علي الطوسي والجرجاني وابن الإخشيد ، وقد ذهب بعض الدارسين أن المعتزلة هم أول من شقوا الحديث في هذا الشأن بما ذكره بعضهم بأن القرآن إنما كان معجزا بنظمه العجيب .

ومن أبرز الجهود المبذولة للتمهيد لفكرة النظم نسجل ما يأتي:

- ابن المقفع (142ه) ولعل ماقاله في معرض حديثه عن صياغة الكلام هو أقدم ما سجل في هذه المسألة ، حيث يقول: (فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل أصيل وأن يقولوا قولا بليغا بديعا ، فليعلم الواصفون المخبرون أنّ أحدهم وإن أحسن وأبلغ ليس زائدا على أن يكون صاحب فصوص وجد ياتقوتا وزبرجدا ومرجانا فنظمه قلائدا وسموطا واكاليلا ن ووضع كل فص موضعه ، وجمع إلى كل لون شبهه ومايزيده بذلك حسنا فسمي ذلك صانعا رفيقا... فمن جرى على لسانه كلام يستحسنه أو يُستحسن منه فلا يعجبنّ إعجاب المخترع المبتدع ، فإنّه اجتناه كما وصفناه)
- سيبويه(180ه) : عقد بابا في كتابه " الكتاب " سماه " هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة منه) وذكر فيه أنواع الكلام " المستقيم الحسن ، والمحال ، والمستقيم الكذب ، والمستقيم القبيح ، والمحال الكذب "
- كما فرّق بين معاني الحروف إذا تغيرت مواضعها وعقد لذلك بابا عنوانه)(هذا باب معنى الواو فيه كمعناها في الباب الأول).
- بشر بن المعتمر (210ه) نجد قوله" فإن كانت المنزلة الأولى لاتواتيك ولا تعتريك ولا تسمح لذ عند اوّل نظرك وفي أوّل تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر إلى قرارها وإلى حقّها من أماكنها المقسومة لها...)
- عمرو بن كلثوم العتابي (220ه) قال: " الألفاظ أجساد والمعاني أرواح ، وإنما تراها بعيون القلوب ، فإذا قدمت منها مؤخرا ، او أخّرت منها مقدما أفسدت الصورة وغيّرت المعنى ، كما لو حُوّل الرأس موضع يد ، أو يد إلى موضع رجل لتحولت الخِلقة ، وتغيّرت الحلية "
- الجاحظ (255ه) ينسب إليه كتاب النظم وإن كان لم يصل إلينا ، فقد كان أحسن من تكلم في هذه المسألة قبل الجرجاني وهو يتحدث عن أجود الشعر فرآه ما تلاحمت أجزاؤه وسهلت مخارجه فأفرغ إفراغا جيدا وسُبك سبكا واحدا ، ليجري على اللسان كما يجري الدِّهان .

وقد أورد نصوصا كثيرة تؤيد مسألة النظم وإن لم يفصّل القول فيها.

كما نجد في طريقنا للتأريخ لنظرية النظم منجز ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن وابن المُدبر (279ه) الذي يقول في الرسالة العذراء: " فإنما يكون الكتاب كاتبا إذا وضع كل معنى في موضعه وعلّق كل لفظة على طبقها من المعنى ، فلا يجعل أوّل ماينبغي له أن يكتب في آخر كتابه أوّلَه ، ولا آخره في أوّله " ، وكذلك قال أصحاب القرن الرابع في النظم كالواسطي(306ه) والطبري المفسّر (310ه) الذي سجلنا قوله " ومن اشرف تلك المعاني التي فضّل بها كتابنا سائر الكتب قبله ، نظمه العجيب ن ورصفه الغريب ، وتأليفه البديع .."

علي بن عيسى الرماني(386ه).قال: " وحسن البيان في الكلام على مراتب ، فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع ويسهل على اللسان ن وتتقبله النفس تقبّل البرد ، وحتى ياتي على مقدار الحاجة فيما هو حقّه من المرتبة "

وقد علق على قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ..) فقال: إنّ هذا من حسن التشبيه ، فكيف إذا تضمّن مع ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ وكثرة الفائدة وصحّة الدلالة ".

الخطابي (388ه).ذكر الخطابي أن القرآن معجز في نظمه فقال: " واعلم أن القرآن إنما صار معجزا ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظوم التأليف مضمّنا أحسن المعاني"

أبو هلال العسكري (395ه)

عقد العسكري في كتابه الصناعتين بابا سماه " في البيان عن حسن النظم وجودة الرّصف والسبك وخلاف ذلك) وقد ذكر فيه أن أجناس الكلام المنظوم ثلاثة ، الرسائل والخطب والشعر وجميعها تحتاج إلى حسن تأليف وجودة تركيب "

أبو بكر الباقلاني (ت403هـ)

قال في نظم القرآن " لتعرف أن ما ادعيناه من معرفة البليغ بعلوّ شأن لاقرن وعجيب نظمه وبديع تأليفه ، أمر لا يجوز غيره ولا يُحتمل سواه ، ولا يشتبه على ذي بصيرة ..."

- القاضي عبد الجبار المعتزلي (415ه): قال في معرض حديثه عن فصاحة الكلام " وإنما يكون الكلام فصيحا لجزالة لفظه وحسن معناه ، لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحا ...وليس فصاحة الكلام بأن يكون له لفظ مخصوص ، لأن الخطيب عندهم يكون أفصح من الشّاعر والنظم مختلف ، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة ، وقد يكون النظم واحدا وتقع المزية في الفصاحة .

وعليه فهذه الآراء المختلفة الموزعة عبر قرون متلاحقة تظهر إسهام الكثير من اللغويين في الإشارة إلى نظرية النظم التي اشتهرت على يد الجرجاني بأن صقل فكرتها وحدد عناصرها ووضع أسسها كما سنراه لاحقا .